صلاح جاهين

الثائر الراقص على أحزانه

- صوت الثورة وشاعر الملايين
- كانت كلماته فانوساً وسط ظلام الهزيمة
- رسم الضحك والسخرية على شفاه الملايين بالكلمة والريشة
- لم يختلف أى تيار سياسى على ضميره الوطنى
- رسم بكل ألوان الطيف ولعب على كل أصابع البيانو

المبدع ضمير مجتمعه وعالمه.

هو كذلك عندما تنبض إبداعاته من قناعاته الصادقة وحبه الحياة.. حياته وحياة الآخرين ومن بغضه الظلم والقيود الجائرة.

صلاح جاهين كان كذلك.

تصدرت أشعار صلاح جاهين مكانة متميزة فى مرحلة المد الوطنى والقومى العربى خلال الستينيات، وكان صلاح جاهين صوت الثورة وشاعر الملايين الذى ألهبت كلماته الوجدان العربى فغنينا معه:

«والله زمان يا سلاحى..

اشتقت لك فى كفاحى

انطق وقول أنا صاحى

يا حرب والله زمان»

وحتى فى أيام الهزيمة بعد نكسة يونيو (حزيران) سنة ١٩٦٧م كانت كلمات صلاح جاهين فانوساً وسط ظلام الهزيمة، يدعو الناس إلى الصمود والبناء. قال خلال حرب الاستنزاف بين مصر والعدو الإسرائيلى على أثر المذبحة التى تعرض لها أطفال مدرسة بحر البقر:

«الدرس.. انتهى لموا الكراريس بالدم اللى على ورقكم سال، فى قصر الأمم المتحدة مسابقة لرسوم الأطفال»

كان صلاح جاهين درساً فى حب الوطن وظل طوال سنوات عمره الست والخمسين يتغنى بحب الوطن الذى عشقه وعمل من أجله. مصر بانتماءاتها

العربية، بلد العروبة وجمال عبد الناصر. لم يتخل عن حبها يوماً حتى فى أحلك لحظات عمره كان يحب مصر مغرماً ثائراً، ناقداً، وكان يقول فيها:

«على اسم مصر التاريخ يقدر يقول ما يشاء..

أنا مصر عندى أحب وأجمل الأشياء.. بحبها بعنف

ويرقة وعلى استحياءواشتمها وألعن أبوها

بعشق زى الداء

وأسيبها وأهرب فى درب..

وتبقى هى فى درب..

وتلتفت تلتقينى جنبها فى الكرب.

هكذا كان صلاح جاهين الذى ألهب مشاعر الوطنية، ورسم الضحك والسخرية على شفاه الملايين بالكلمة والريشة، وظل مكانه شاغراً فى دنيا الكاريكاتير، حتى الآن.

مازال صلاح جاهين استثناء بين أبناء جيله، وتجمعت ولم تختلف الآراء عليه، وهو الوحيد الذى حظى بحب الجميع، ولم يختلف أى تيار سياسى على ضميره الوطنى، كما أجمع النقاد على ضميره الفنى والأدبى، فقد ظل مخلصاً لفكرة أن يكون للمبدع دور فى قضايا بلاده متى صادفت هذه القضايا فى نفسه هوى. واستطاع أن يستثمر موهبته الشعرية المتجددة فى كتابة عدد هائل من القصائد التى كان لها دور فى الدعوة للثورة، ليس تملقاً للسلطة أو انتظاراً لمنصب، أو خوفاً من إدراج أسماء فى قوائم المعتقلين أو المطلوبين وإنما لأنه صوت الشعب.

البدايات

ولد صلاح جاهين يوم ٢٥ ديسمبر (كاتون الأول) سنة ١٩٣٠م واسمه فى شهادة الميلاد «محمد صلاح الدين بهجت أحمد حلمى جاهين» وهو الابن

الأكبر للمستشار بهجت أحمد حلمى. وحفيد الصحافى الثورى أحمد حلمى. محرر جريدة «اللواء» وعضو الحزب الوطنى ومؤلف كتاب «السجون المصرية فى ظل الاحتلال الإنجليزى» الذى كتبه عن تجربة سجنه مكافأة على جهاده الوطنى. وجاب صلاح أقاليم مصر صغيرا، تبعاً لتنقلات عمل والده كوكيل للنيابة، فعشق مصر كلها. وحباه الله بأم كانت من أوليات المثقفات المصريات، وهى أمينة حسن، ذات المزاج الفنى والمعرفة الواسعة بجماليات وفصاحة العامية المصرية القاهرية.

وتقول شقيقته بهيجة، إنه كان فى صغره هادئا ومسالماً. ولا تذكر يوماً أنه ضربها، وعندما كانت والدتها تعاقبها، كان صلاح هو الذى يتولى الدفاع عنها ويرجوها ألا تضربها أو تعاقبها لأنها صغيرة.

صانع العرائس

وكانت تنحصر اهتماماته، فى الطفولة المبكرة فى اتجاهين.

الأول: الألعاب اليدوية الدقيقة، حيث كان يصنع لشقيقاته الألعاب والعرائس ليلعبن بها، كما أنه صنع لوالدته قرطاً جميلاً وبسيطاً.

الثانى: القراءة فقد كان قارئاً نهماً. وكان للمكتبة الكبيرة، التى تملكها أسرته عن جده زميل ورفيق مصطفى كامل ومحمد فريد. الفضل فى أن ينهل من كافة مجالات المعرفة، وكان لديه تعطش شديد للمعرفة. وكان أول ما يبحث عنه كلما انتقل مع والده إلى أى محافظة من محافظات مصر هو المكتبة العامة، كما كان حريصاً على الاستماع لأغانى الفلاحين، ويحفظ إيقاعاتهم وينظم بعض الكلام الإيقاعى، حتى على صوت مرور القطار على القضبان وأثمر هذا الاهتمام شاعراً وفناناً.

وللرسم قصة غريبة فى حياة صلاح جاهين، إذ لم تكن درجاته تتجاوز ٤٠٪ فى أحسن الحالات، وكان أستاذ الرسم يفرض على تلاميذه نقل صور الطبيعة نقلاً جامداً، فكان صلاح جاهين. الذى يكره القيود والتقليد، لا يحصل على

أى درجة معقولة في الرسم، واستمر الأستاذ «الأرناؤوطى» مدرس الرسم، الذى كان يروى للطلبة قصة من الخيال ويدعوهم لرسمها كما يحلو لهم فبدأ صلاح يتخيل ويرسم، ودهش المدرس، بل والأسرة ومن يعرفونه. وشجع المدرس تلميذه، الذى قرر المشاركة فى مسابقة دولية، وفاز بالمرتبة الأولى، ومازالت الصورة الفائزة موجودة فى لندن.

وهكذا كتب لموهبة صلاح فى الرسم أن تزدهر على يد الأستاذ المثقف الواعى، والذى امتدت علاقة صلاح به، حتى أخر العمر، فعلى يديه بدأت العلاقة الحميمة بين صلاح والرسم. حتى أصبح الرسم بستاناً آخر من بساتين الإبداع لدى صلاح جاهين.

صلاح والأساتذة

انقسم المدرسون حول صلاح جاهين إلى فريقين، فريق يرى فيه نبوغاً، ويسانده ويعجب به إعجاباً شديداً، حتى إن أحد المدرسين كتب له: «يا أحسن تلميذ فى المدارس»، وفريق آخر لا يقتنع بنزعاته التحررية، حتى إن أحد المدرسين علق على أحد موضوعات الإنشاء، التى كتبها صلاح قائلا: «هذيان محموم ورب الكعبة».

الهارب من «القانون»

أراد دراسة الفنون بعد حصوله على الثانوية العامة فرفض والده، وكذلك والدته وضغطا عليه لدراسة القانون، فقبل على مضض، وكانت النتيجة أنه مكث فى السنة الأولى فى كلية الحقوق ثلاث سنوات، حتى لحقت به شقيقته وأصبحا طالبين فى السنة الأولى، فداعبها صلاح قائلا: يعنى معقول الأخت الصغيرة تنجح والكبير لا».

فذاكر فى الشهر الأخير ونجح فعلاً، وانتقلا معاً إلى السنة الثانية ونجحا أيضاً وانتقلا إلى السنة الثالثة. وبلغ رفض صلاح التعليم وتمرده على هذا الوضع ذروته، فصمم على عدم دخول الأمتحان ودارت مناقشات طويلة وحادة بينه

وبين والده، لكن صلاح رفض تماماً هذا المنطق وترك المنزل بعد مشادة عنيفة مع والده، وقال لوالده قبل أن يغادر البيت غاضباً: «مع احترامى الشديد لك يا بابا. لكن أرفض التخرج فى كلية الحقوق حتى يشار إلىّ بأننى ابن بهجت بك لأنهم غداً سيقولون عنك إنك أبو صلاح». وحدث ذلك، عندما عين «أبو صلاح» رئيساً لمحكمة الاستئناف العليا، وذهب ليؤدى اليمين القانونية أمام الرئيس الراحل جمال عبد الناصر، فيهمس وزير العدل فى أذن عبد الناصر بأن الواقف أمامه هو والد الشاعر صلاح جاهين، فانبسطت أساريره وعاود من جديد مصافحة الرجل بكلتا يديه وبحرارة شديدة، فلما عاد الأب إلى المنزل قال لأبنه صلاح، وكان فى غاية السعادة «يا بن الإيه. معقول أن يصل الأمر أن أُعرف بك؟» ومع ذلك وبعد سنوات طويلة، ذكر صلاح جاهين أنه يشعر بالندم لأنه لم يحقق حلم والده، وعارضه فى استكمال دراسته. ولعل هذا هو السبب فى حرصه لاحقاً على ضرورة أن يحصل ابنه بهاء على «الماجستير» ويشجعه على الاستمرار ليحصل على الدكتوراه.

وبعد خروجه من الوصاية الأبوية بدأ يكتب الإعلانات للسينما ويرسم فى الصحافة أو يعمل فى سكرتارية التحرير الفنية. فولد هذا فيه تأنقاً مبكراً. وكانت الصورة الإذاعية المشهورة «حلاوة زمان» كانت فى الأصل إعلاناً للسينما كتبه صلاح عن منتج اندثر اسمه. وبقى هذا «الأوبريت» البديع، الذى لحنه صدقى وأخرجه صلاح أبو سيف عام ١٩٤٧م، حين كان صلاح جاهين لم يبلغ السابعة عشرة بعد.

شاعر العامية

تفتحت عينا صلاح جاهين على صورة كبيرة لمصطفى كامل معلقة فى منزل أسرته، تجاورها صورة محمد فريد، وولد هذا لديه وعياً كبيراً بأن الاستعمار والإنجليز هم أعداء الوطن ولابد من رحيلهم، وكتب عام ١٩٤٦م شعراً بالفصحى يقول فيه «كفكفت دمعى، ولم يبقى سوى جلدى

ليت المراثى تعيد المجد للبلد».

ورغم أن بداية كتابته الشعر كانت بالفصحى، لكنه تمرد على الكتابة بهذه الطريقة وظل يبحث عن شكل جديد للشعر، بعيداً عن التقليد والقيود، وهكذا نشأ متمرداً واختار العامية المصرية، التى كانت لا تمنح أحداً أكثر من لقب «رجال» وكان هذا اللقب يحمل مهانة شعرية. لكنه صنع من العامية مع فؤاد حداد، مدرسة أدبية أنجبت وأثرت، وكان «فؤاد حداد» قد سبقه إلى إيجاد الوسيلة والطريقة الجديدة للتعبير حين كتب:

فى سجن مبنى من حجر

فى سجن مبنى من قلوب السجانين

قضبان بتمنع عنك النور والشجر

زى العبيد مترصصين».

وكان صلاح جاهين يعترف باستمرار بفضل فؤاد حداد عليه.

المسؤولية

ارتبط اسم صلاح جاهين بثورة يوليو ١٩٥٢م، وتغنى بإنجازاتها وصاغ أحلامها وأفكارها. ولم تكن كلماته صادرة عن خوف أو رياء، كما زعم البعض فلم يكن يغنى لعبد الناصر باعتباره القائد الزعيم على أحقيته وجدارته، ولا حتى كان يغنى لثورة يوليو باعتبارها ثورة يوليو ذات الإنجازات المبهرة فى زمن قياسى، بل كان لحلم الثورة الشاملة الكاملة. وبين الثورة الحلم والثورة الواقع، مسافات كبيرة وظل يلاحقه طوال حياته اتهام بأنه قام بالدور الأهم فى جر الجماهير إلى حافة الوهم، بخداعها بالحلم الكبير بالحرية والنصر، وإذا بهم يفيقون على كارثة مروعة مازالوا يلعقون جراحها. لكن جاهين لم يكن يلقى بالاً لذلك، فقد كان جرحه مثل الشعب وظل يحارب بشرف ولم يلق اسلحته، بل ظل نابضا بحب الوطن والناس وزحامهم، رغم كثرة متاعبه النفسية ونوبات الكآبة. التى كانت

تصيبه من آن إلى آخر ولكنه كان يستعيد توازنه، استمر فى كتابة الأغنية الوطنية، وكتب من وحى حرب الاستنزاف أغنية «الدرس انتهى لموا الكراريس» والتى غنتها شادية عن استشهاد أطفال بحر البقر على أثر غارة جوية إسرائيلية. ثم كتب «عناوين جرايد المستقبل» عند استشهاد عمال مصنع أبو زعبل ثم توقف عن الكتابة فترة طويلة إلى أن كتب أغنية «المصريين أهمه.. وطنية وعزم وهمه..» بعد إلحاح من المطربة ياسمين الخيام، وكانت آخر أغنية وطنية كتبها.

وقد خلف وراءه ثروة إبداعية تُعنى بهموم البسطاء والمثقفين وكل عناصر هذا الوطن الذى يسكنه. عمل صلاح جاهين فى البداية رساماً للكاريكاتير فى مجلة روز اليوسف ثم فى جريدة الأهرام، ثم رأس تحرير مجلة صباح الخير، ثم عاد إلى جريدة الأهرام عام ١٩٦٧م، ضارباً بسهم وافر فى مجالات عديدة، ورسم بكل ألوان الطيف ولعب على كل أصابع البيانو، فكان الفنان والشاعر والصحافى ورسام الكاريكاتير والممثل والمبدع وكاتب السيناريو.

وكان صباح يوم الاثنين ٢١ أبريل ١٩٨٦ آخر موعد له مع الحياة، بل إنه مات قبل هذا التاريخ بخمسة أيام حين أدخل مستشفى «الصفا» فى حى المهندسين في القاهرة وهو فى حالة غيبوبة لم تفارقه حتى توقف قلبه، وقيل إن صلاح جاهين، وهو فى غرفة العناية المركزة، كان يفتح عينيه قليلاً لينظر إلى من حوله فلا يتكلم ولا يعى وجوه الناس، فيعود ليستسلم للرقاد، ورحل عن ٥٦ عاماً.

«مات ما قلش لحد»

ومن المفارقات أن صلاح جاهين، الذى زرع الابتسامة كما أشعل نار الثورة داخل قلوب الناس وحرضهم على الكلام والبوح:

«اتكلمو... اتكلموا... اتكلموا...

محلا الكلام ما ألزمه وما أعظمه» أصاب الحزن هذا الصوت القوى الواضح، وهده الألم: ساعات أقوم الصبح قلبى حزين

أطل بره الباب يا خدنى الحنين

اللى لقيته ضاع

واللى اشتريته انباع

واللى قابلته راح وفات الأنين»

وكانت تحاصره حالة من الاكتئاب، ولكنه لم يترك قلمه، بل ظل يكتب:

«بعد الطوفان إيه اللى فى الإمكان؟

ياهل ترى فى الدنيا برأمان؟

واللى انكتب له النجاة

إزاى يعدو للحياة؟

وكأن صلاح جاهين قد رثى نفسه قبل أن يموت، حين رثى بيرم التونسى سنة ١٩٦١:

«مات زى ما كتف الجبل ينهد

مات باقتدار وفخار ماقلش لحد».

ميراث صلاح جاهين

رغم آلاف الأشعار التى ملأت الدنيا ورددها الناس، لم يصدر «صلاح جاهين» فى حياته سوى ستة دواوين شعرية أولها: «كلمة سلام، عام ١٩٥٥، والثانى عام ١٩٥٦ «موال عشان القنال» والثالث: «القمر والطين» عام ١٩٦١، ثم «الرباعيات» عام ١٩٦٣، و «قصاقيص ورق» سنة ١٩٦٥، وكان ديوانه الأخير «أنغام سبتمبرية» عام ١٩٨٤م.

وفى دنيا البشر أبدع صلاح جاهين ثلاث زهرات يانعات: «بهاء» و «أمينة» من زوجته الأولى الرسامة «سوسن زكى» ساميه من زوجته الثانية الفنانة «منى قطان»